الــتـواصل غيـر الــلـفـظي

فــي الــسـنـة الــنـبـويـة

الأستـاذ احســن خشـــــة
جامعة 08 ماي 45 قالمة

مقدمة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى وعلى اله وصحبه ومن سار سيره وسلك سبيله الى يوم الدين ، وبعد فان هذه الورقة تتمحور حول استعمالات ودلالات التواصل غير اللفظي في الأحاديث النبوية الشريفة ، وذلك من خلال استعراض بعض النماذج الموضحة لتوظيف لغة الجسد في عملية تواصل رسول الهدى صلى الله عليه وسلم مع صحابته الكرام .

ان اعتماد المنظور الاتصالي في فهم السنة النبوية يحتاج الى جهد علمي يفوق المجال المكاني الدي يمكن أن تستوعبه هده الورقة ، لأن عدد الأحاديث النبوية التي وردت فيه أنماط من التواصل الغير لفظي متعددة وكثيرة جدا .

فاثرنا في هذا المقام انتقاء بعض النماذج التي أردنا من خلالها تسليط الضوء على بعض الأبعاد التواصلية في الأحاديث النبوية الشريفة ، خاصة ما تعلق منها بالأنظمة التمثيلية ، والتنويع في الأداء الحركي ، والتي لم تحظى بالدراسة والبحث –في حدود اطلاعنا –

ولا شك أن مثل هذه المحاولة تلفت نظر الباحثين الى ضرورة الاهتمام بهذه المجالات التي لا تزال تعاني من شح كبير في الدراسات والأبحاث ، لكي نصل الى محاولات ترقى الى درجة التنظير وبلورة رؤية اسلامية بناءا على التراث القيمي المستوحى من القران والسنة .

وسيرا مع أهداف الملتقى ، فان هذه الورقة تحاول تقديم قراءة اتصالية لبعض نصوص الحديث النبوي الشريف ، يتبرز أهمية توظيف ما يستجد من معارف في العلوم الإنسانية والاجتماعية لتدعيم وتطوير وتجديد فهمنا للنصوص الدينية بما يتوافق مع مقتضيات العصر وثوابت الأصل .

وتنقسم هذه الورقة إلى المحاور التالية :

1-نظرة عامة حول الاتصال غير اللفظي

2-قراءة في كيفية التعامل مع السنة النبوية

3- نماذج من استخدامات لغة الجسد في السنة النبوية

أولا : نظرة عامة حول الاتصال غير اللفظي :

يعتبر علم الاتصال علما متعدد المستوى variable field (1) يوظف في كل مجالات الاهتمام البشري في الاقتصاد ، والإدارة ، والسياحة ، السياسة ، الدين ، والفن ، ويتوقف عليه إلى درجة كبيرة النجاح في تحقيق الأهداف والسياسات .

وعلى الرغم من أهمية هذا المجال ، إلا أن الدراسات والأبحاث فيه ما تزال حديثة النشأة إذا ما قورنت بالاختصاصات العلمية الأخرى .

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المحصول المعرفي المتوفر حاليا حول علم الاتصال بشكل عام هو من إسهامات و إبداعات غربية ، ولا نكاد نعثر من اجتهادات المسلمين على المستويين النظري والتقني إلا القدر اليسير .

لقد توصل "البر مهارابيان " مؤلف كتاب "البلاغ الصامت" إلى أن طرائق الاتصال ليست على مستوى واحد من حيث الأهمية بحيث أن (2)

1-الاتصال اللفظي : لا يمثل سوى 7 بالمائة من عملية الاتصال . وفي رأي مهارابيان "ليست للكلمات أي معنى سوى المعنى الذي نعطيه لها "

2–الاتصال الصوتي : تزيد أهمية العامل الصوتي عن 38 بالمائة بالفعل ، فان نبرة صوتك قد تنقل بلاغا مضادا في المعنى للذي تحمله كلماتك .. ففي أغلب الأحيان ، يكون للبلاغ الصوتي تأثير أعمق من البلاغ الكلامي .

———

1–محمود محمد قلندر ، محمد بابكر عوض ، اتجاهات البحث في علم الاتصال ، دمشق ، دار الفكر ، 2009 ، ص 13

2–ابراهيم الفقي ، البرمجة اللغوية العصبية ، دمشق ، منار للنشر والتوزيع ، ب ت ، ص ص 120 ، 121

3–الاتصال البصري : وهي تمثل 55 بالمائة من عملية الاتصال . إن لغة جسمك وتعبيرات وجهك لها تأثير أعمق في عملية الاتصال من العاملين اللفظي والصوتي مجتمعين .

ويعبر عن هذا النوع من التواصل أيضا بتسميات متعددة منها : الاتصال غير اللفظي ، اللغة الصامتة Silent Language

ويقسم "هارسون " أنواع الإشارات غير اللفظية إلى أربعة هي (1) :

1–**رموز الأداء** :وتشمل حركات الجسد ، مثل تعبيرات الوجه ، وحركات العيون والايماءات ، وكذلك ما أطلق عليه "شبه اللغة " مثل : نوعية الصوت ، الضحك ،

2–**رموز اصطناعية**: مثل نوع الملابس ، وأدوات التجميل ، والأثاث ، والمعمار ، والرموز المعبرة عن مكانة الإنسان .

3–**رموز إعلامية** : نتيجة الاختيارات والترتيب والابتكارات من خلال استخدام وسائل الاتصال الجماهيرية ، مثل حجم "البنط " ونوع الصورة ، والألوان ، والظلال ، ونوع اللقطة التلفزيونية ... بعيدة أو مقربة ، وكذلك أسلوب استخدام الموسيقى والمؤثرات الصوتية .

4-**رموز ظرفية** : وتتبع من استخدامنا للوقت والمكان ، ومن خلال ترتيب المتصلين والأشياء حولهم ... مثل : ترتيب جلوس الزوار حسب أهميتهم الاجتماعية ، أو تجاهل شخص نعرفه بطريقة متعمدة .

1-حسن عماد مكاوي ، ليلى حسين السيد ، الاتصال ونظرياته المعاصرة ، بيروت ، الدار المصرية اللبنانية ، 2003 ، ص 28

وينطوي الاتصال غير اللفظي على أهمية بالغة في التواصل الإنساني ، ويستخدم قنوات متعددة منها : تعبيرات الوجه والعين ، حركات الرأس ، المظهر ، المسافة ، وفيما يلي نستعرض بعض هذه التعبيرات الجسدية .

1-تعبيرات الوجه والعين :

ورد في القران الكريم آيات عديدة دالة على تعبيرات الوجه والعين ، نذكر منها في وصف تعبيرات الوجه ، قوله تعالى: (وجوهٌ يومئِذٍ مسفرة * ضاحكةٌ مستبشرةٌ] (سورة عبس, الآية:38,39) .

(عبس وتولى * أن جاءه الأعمى] (سورة عبس, الآية:1,2) .

وقد ذكر القرآن الكريم لغة العيون في آيات تصف مواقف ودلالات معينة قال تعالى: [وإذا مروا بهم يتغامزون). (سورة المطففين, الآية:30) .

وللوجه نوعان من التغيرات: إما عفوية، مثل: الابتسامة، والغضب، وما إلى ذلك وإما مصطنعة، مثل: الغمز بالعين .

2-التعبيرات الناتجة عن المسافة :

إن المتعارف عليه في طرائق التواصل مع الآخرين أنه لا بد من مراعاة مجموعة من الضوابط ، خاصة ما تعلق منها بالمسافة التي تفصل بين المتواصلين ،

وهي التي تصنف بحسب طبيعة العلاقة والمكانة ، وهي تقسم إلى : المنطقة الحميمة ، المنطقة الشخصية ، المنطقة الاجتماعية ، المنطقة العامة .

ويوضح "الان بييز" حدود هذه المناطق على النحو التالي (1)

1–المنطقة الحميمة : بين 15 –46 سم

من بين كل المسافات المناطقية ، هذه هي الأهم لأنها المنطقة التي يحرسها الإنسان كما لو كانت من ممتلكاته الخاصة . وحدهم أولئك الذين هم قريبون عاطفيا من ذلك الشخص يسمح لهم بدخولها .

2–المنطقة الشخصية بين 46 سم و 1,22 م : هذه المسافة التي نقف عندها من الآخرين في الحفلات الاجتماعية والرسمية وفي اللقاءات الودية .

3–المنطقة الاجتماعية بين 1,22 م و3,6 م : نقف لدى هذه المسافة من الغرباء

4–المنطقة العامة : فوق 3,6 م : عندما نتوجه بالكلام إلى جمع غفير من الناس .

3– التعبيرات باستخدام الإيماءات.

وتصنف الإيماءات إلى أربع فئات (2) :

أ-**الإيماءات الوصفية :** تستخدم من أجل التوضيح أو التعزيز ، وتتضمن بعض الإيماءات الوصفية استخدام الأيدي للإشارة إلى الحجم ، والشكل ، والموقع ، ووظيفة شيء ما مثل موج البحر المرتفع أو جبل كبير ، أو مخلوق ضئيل .

---

(1)الن بيز ، لغة الجسد ، ترجمة سمير شيخاني ، بيروت ، الدار العربية للعلوم ، الطبعة الأولى ، 1997 ، ص ص 22 ، 23

(2)معهد برينستون للغات ، كن خطيبا واثقا في 10 أيام ، مكتبة جرير ، الطبعة الأولى ، 2008 ، ص ص ، 142 ، 143

ب-**الإيماءات التأكيدية :** تستخدم للتأكيد على ما يقال ، على سبيل المثال ، تشير القبضة المضمومة إلى مشاعر قوية مثل الغضب أو الإصرار.

ج-**إيماءات الاقتراح :** وهي رموز لأفكار أو مشاعر . على سبيل المثال ، إن راحة اليد المفتوحة توضح العطاء أو الأخذ ، بينما هز الأكتاف يشير إلى التجاهل أو الارتباك أو السخرية .

د-**الإيماءات التحفيزية :**تستخدم من أجل الحصول على الاستجابة المرجوة من الجمهور . على سبيل المثال ، إذا أردت من مستمعيك أن يرفعوا أيديهم أو يصفقوا أو يقوموا بأي عمل آخر ستشجعهم عن طريق القيام بالفعل الذي تريده منهم بنفسك .

3) التعبيرات الناتجة عن المظهر.

يمثل المظهر الخارجي للانسان في الثقافات المختلفة أهمية كبيرة, ويحدث التفاعل بين الأفراد من خلال: المظهر الجسمي، والبشرة، والشعر، والهيئة، ونوع الملابس، وألوانها، والإكسسوارات، والروائح، وغيرها من الأمور التي بواسطتها يتم إرسال

إشارات تواصلية غير لفظية؛ حيث يشعر الأفراد بالرضا عن مظهرهم، ورضي الآخرين عنهم (1) .

1–ديماري, آن وفالري وايت (2008م): "**الانطباعات الأولى**", السعودية ، مكتبة جرير للنشر والتوزيع والترجمة, ط3, 2008. ص 18

ثانيا : في كيفية التعامل مع السنة النبوية

يحتاج فهم الدين بمصدريه الأساسيين الكتاب والسنة إلى تخصص دقيق وفهم عميق لا يتاح لكل الناس ، ومع ذلك فان الكثير من المسائل الدينية التي ربما تستشكل على العلماء المتخصصين في العلوم الشرعية تشهد جرأة غير معهودة لدى العام والخاص في تناولها بلا دراية ولا كفاية من علوم دينية ومعرفة علمية وإحاطة لغوية ، ومعايشة واقعية ، الأمر الذي انجر عنه تعدد في الفتاوى وتضارب اتجاهاتها بطريقة لا تخدم الاختلاف المحمود بقدر توسيعها للتشرذم المذموم الذي يلقي بظلاله الوارفة على ممارسات المسلمين داخل البلاد الإسلامية وفي خارجها ، فيسيء لصورة الإسلام والمسلمين .

وما فهمته من بعض كتابات علماء المسلمين حول كيفية التعامل مع الأحاديث النبوية الشريفة يمكن إجماله في النقاط الآتية :

1–فهم الأحاديث على ضوء الأصول القرآنية ومقاصد الدين :

لأن الأحاديث النبوية الشريفة شارحة لما أجملته نصوص القران الكريم ، في إطار مقاصد الدين الأساسية .

2-النظر في سياق الحديث النبوي : فهناك أحاديث قيلت في سياق خاص لا يسوغ تعميمه على سياقات أعم وأشمل منها ، وهذا ما يقع فيه الكثير ممن يتجرؤون على اصدار بيانات أحكام الدين فيما يستجد من نوازل الناس .

3-الحكم الديني لا يؤخذ من حديث واحد ، وفي هذا يقول الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله – بل يضم الى غيره من الأحاديث ، وتقارن مع النصوص القرانية .

"إن الحكم الديني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره ، وإنما يضم الحديث إلى الحديث ، ثم تقارن الأحاديث بما دل عليه القران الكريم ، فان القران هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه ، ومن زعم أن السنة تقضي على الكتاب ، أو تنسخ أحكامه فهو مغرور "(1)

4-التدقيق في صحة الأحاديث المنقولة عن المصطفى عليه السلام ، وتصنيفها وفقا لأولويات معينة تطابق حاجة المسلمين إليها في هذا العصر .

لأن هناك " ركاما من الأحاديث الضعيفة ملأ آفاق الثقافة الإسلامية بالغيوم ، وركاما مثله من الأحاديث التي صحت ، وسط التحريف على معناها ، أو لابسها كل ذلك جعلها تنبو عن دلالات القران القريبة والبعيدة "(2)

وهنا يمكن أن نستحضر فكرة الإمام النووي – رحمه الله –، والذي أورد في كتابه الأربعين نووية ، الأحاديث التي يحتاج إليها المسلمون ، ويطلب منهم حفظها . وفي هذا الإطار تبرز حاجتنا إلى اجتماع المختصين في علوم الحديث بغرض إحداث تصنيف جديد للأحاديث النبوية مرتبا وفقا أولويات معينة تتوافق مع

حاجتنا اليوم في ظل حالة التخلف والضياع التي يعاني منها العالم العربي والإسلامي .

1–محمد الغزالي ، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ، وادي سوف ، الجزائر ، دار السلام ، ص 136

2–المرجع السابق ، ص 137

ثالثا : نماذج من استخدامات لغة الجسد في السنة النبوية

تجدر الإشارة إلى أن هناك الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تضمنت الاتصال غير اللفظي ، ولا يمكن لهذه الورقة أن تستوعب هذا الكم الهائل من الأحاديث التي تحتاج إلى جهد أكبر في جمعها وتصنيفها ، لذا استعضت عن ذلك بانتقاء بعض النماذج من هذه الأحاديث التي تتمحور حول المحاور التالية حسب موضوعاتها :

1–نزول الوحي

2–سؤال حول الإسلام ، الإيمان ، الإحسان

3–عن الكبائر ، وقول الزور

4–خطاب الرسول للأنصار بعد غزوة حنين

وانتقاء هذه الأحاديث جاء بصورة مقصودة لتسليط الضوء على النقاط التالية في التواصل غير اللفظي :

1-التواصل غير اللفظي بين العام والخاص

2-المسافات المناطقية

3-التحول الخطابي

4-النظام التمثيلي

الحديث الأول :هيئته الشريفة عند نزول الوحي :

فعن ابن عباس أن النبي –صلى الله عليه وسلم – كان يحرك شفتيه عند نزول الوحي (1) (1) البخاري ، الصحيح ، ص 4 ، 829

ويمكن في هذا الإطار التمييز بين نوعين من لغة الجسد وفقا للمنظور الإسلامي

1-لغة الجسد العامة تشترك فيها الإنسانية جمعاء ، وفي هذا الإطار نجد الرسول صلى الله عليه وسلم بوصفه إنسانا تصدر عنه حركات وإيماءات ذات طبيعة بشرية ، ويظهر ذلك جليا مثلا في حزنه صلى الله عليه وسلم على وفاة إبراهيم .

2-لغة الجسد الخاصة بوصفه مرسل من عند الله عزوجل ، وتتجلى في تفاعله صلى الله عليه وسلم وهو يتلقى الوحي من عند الله –عزوجل –وهي الحالة التي لا نستطيع الخوض فيها إلا من خلال ما ورد إلينا من أقوال الصحابة وتوصيفهم لحالة المصطفى عليه السلام عند تنزل الوحي عليه .

فعن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول " . قالت عائشة رضي الله عنها : " ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا " رواه البخاري ج1(1)

1-مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، دمشق ، دار الفكر ، 2004 ، ص 151

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي كرب لذلك ، وتربد وجهه ، وفي رواية نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم ، فلما سري عنه رفع رأسه "(1)

ويمكن أن نعتبر هذا النوع من حركات الجسد الاستثنائية التي يختص بها الأنبياء والمرسلون من عند المولى عزوجل ، وهي خارج مجال البحث والاكتشاف .

استطاع أصحابه أن يلاحظوا كلما نزل الوحي ، شحوبا مفاجئا ، يتبعه احتقان في وجه النبي صلى الله عليه وسلم وهو نفسه يدرك ذلك ، ولذا يأمرهم بأن يلقوا على وجهه سترا كلما طرأت الظاهرة ، ألا يعني هذا الاحتياط أن هذه الظاهرة كانت مستقلة عن إرادة النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يصبح عاجزا مؤقتا أن يغطي وجهه بنفسه ، وهو يعاني حالة متناهية الإيلام ، كما روت السيرة (2)

وما ورد إلينا من توصيف الصحابة عليهم رضوان الله لكيفية نزول الوحي على الرسول الكريم يمكن إجماله في العناصر التالية :

1–نكس الرأس

2–تحريك الشفتين

3–التعرق

4–الغطيط

1–المرجع السابق ، ص 153

2–المرجع السابق ، ص 153

5–احمرار الوجه ومن ذلك وصفهم له : "فأدخل يعلى رأسه ، فإذا هو محمر الوجه يغط "( ) البخاري ، الصحيح ، ص 3 ، 580

وهذه الإيماءات يتبين من خلالها للصحابة أن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم في عالم خاص يختلف عن الواقع الحقيقي الذي يحياه الصحابة الكرام .

الحديث الثاني : جلسة المتعلم

وقد وردت في الحديث الذي جاء فيه : "**بينما نحن عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم –ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فاسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام ...ثم انطلق فلبث مليا ، ثم قال لي : يا عمر ، أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فان جبريل أتاكم يعلمكم دينكم** "

من طرق التواصل غير اللفظي التي نستخلصها و نستفيد منها من خلال هذا الحديث :

1- طريقة الجلوس ، وهذا يدل على أدب المتعلم مع العالم .

2- لم تصدر عنه حركات أو إشارات تدل على أنها أسئلة اختبارية ، وفي هذا دلالة على تواضع المتعلم وأدبه .

3-المواجهة للتلقي المباشر "إسناد ركبتيه إلى ركبتيه " وتسمى في لغة التواصل "التشكيل المغلق " والتي تتضمن معاني أن الشخصين المتقابلين على درجة من القرب الروحي والمعنوي ، كيف والأمر يتعلق برسول الله وجبريل عليه السلام ،

وهنا نجد بتعبير المسافات المناطقية أن جبريل عليه السلام دخل إلى المنطقة الحميمة ، دلالة على علو المكانة والمنزلة الرفيعة .

وهذا الموقف يذكرنا بنزول الوحي "اقرأ" أول مرة على رسول الله ، وكيف أن جبريل عليه السلام ضم إليه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقد ألمح هذا شارح الصحيح قائلا : "وجلس على هيئة المتعلم "(1)

الحديث الثالث : حركات الخطيب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ... فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت "رواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث أبي بكر (2)

من طرائق التواصل التي نستفيد منها من خلال هذا الحديث :

1–أن الخطاب لا يسير على وتيرة واحدة تبعث على السامة و الملل ، بل إن التنويع في أساليب الإلقاء يضفي على الخطاب جاذبية ، تتجلى آثاره في اهتمام المتلقين وتركيزهم واستمتاعهم واستفادتهم .

———

1–النووي ، شرح صحيح مسلم ، ص 1، 272

2–محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، الكبائر ، بيروت ، دار الحكم الدينية ، 2000 ، ص 81

لقد أشارت الكثير من الكتابات حول أسلوب الخطابة الناجحة ، وهنا نستحضر القواعد التي أوردها "ديل كارنجي " بخصوص سر الإلقاء الجيد (1) :

أ–إبراز الكلمات الهامة ، واجعل غير الهامة ثانوية

ب–لا تجعل صوتك على وتيرة واحدة

ج–غير من سرعة حديثك

د–توقف قبل وبعد كل فكرة هامة

2–التفاعل الحركي مع المعاني : ويتجلى ذلك في تغيير الهيئة التي كان عليها المصطفى عليه السلام " جلس بعد أن كان متكئا " لتحضير المتلقي للتركيز في أهمية الفكرة التي يود توصيلها و للدلالة على أهمية ما سيأتي بيانه ، وهنا يتكون لدى المتلقي تركيزا كبيرا لتلقي المنبه وقبوله .

"هناك شيء له قيمته ولا يقتصر على مجرد الكلمات ، وهي تلك الروح التي تلقى بها الكلمات : ليس ما تقوله هو كل شيء ، بل الطريقة التي تقوله بها "(2)

3-التكرار : وهي أسلوب للتأكيد على خطورة وأهمية موضوع أو قضية معينة ،

وهو ما نجده في القران الكريم للتأكيد على مسائل معينة كقوله تعالى في سورة الحاقة "الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة .."

1-ديل كارنجي ، التأثير في الجماهير عن طريق الخطابة ، ترجمة رمزي يسى ، عزت فهيم صالح ، بيروت ، دار الفكر العربي ، ب ت ، ص 98 وما بعدها

2-المرجع السابق ، ص 103

النموذج الرابع : معرفة النظام التمثيلي للمتلقين (1)

1-في النظام التمثيلي الحسي :

"(يا معشر الأنصار ..ما قالة بلغتني عنكم ، **وجدة** وجدتموها علي في أنفسكم ..؟؟ ألم اتكم ضلالا فهداكم الله ؟؟ وعالة فأغناكم الله ؟؟وأعداء **فألف** الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل

قال : ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟؟

قالوا : بما نجيبك يا رسول الله ؟؟ لله ولرسوله المن والفضل ...

قال الرسول : " أما والله لو شئتم ، فلصدقتم وصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وعائلا فواسيناك ، وطريدا فآويناك

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ...؟؟

(1)يتواصل الإنسان مع العالم من حوله عن طريق الحواس الخمسة ، والتي من خلالها تتم عملية الإدراك ، ولكل فرد منا نظام بارز يتفوق على باقي الأنظمة ، ويميز المختصون في علم النفس بين ثلاث أنواع من الأنظمة التمثيلية : البصري ، السمعي ، الحسي . وكل نوع تناسبه طريقة معينة في طريقة الاتصال :فالأشخاص البصريون يناسبهم الأسلوب التصويري ، بحيث تجعلهم يرون ما تود قوله ، والأشخاص السمعيون يحبذون تغيير نبرة الصوت والتحدث ببطء ووضوح ، والأشخاص الحسيون يتأثرون إذا جعلتهم يشعرون بما تريد قوله لهم .

"ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ...؟؟ فو الذي نفسي بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار .. ولو سلك الناس شعبا لسلكت شعب الأنصار

اللهم ارحم الأنصار.. وأبناء الأنصار .. وأبناء أبناء الأنصار ...

هنالك بكى الأنصار حتى أخضلوا لحاهم ..وصاحوا جميعا " رضينا برسول الله قسما وحظا "(1)

والسياق الذي ورد فيه هذا الخطاب النبوي ، كان عقب غزوة حنين ، راح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوزع الغنائم والتي كانت مصدرا يسترزق منها المسلمون ولحكمة رآها المصطفى عليه السلام أنه اهتم اهتماما خاصا بالمؤلفة قلوبهم ، وهم أولئك الأشراف الذين دخلوا الإسلام حديثا .

وقد عبر عن ذلك "حسان بن ثابت " بقوله (2) :

وآت الرسول فقل يا خير مؤتمن للمؤمنين إذا ما عدد البشر

علام تدعى سليم وهي نازحة قدام قوم ، هموا آووا وهم نصروا

سماهم الله أنصارا بنصرهم دين الهدى ، وعوان الحرب تستعر

وسارعوا في سبيل الله واعترفوا للنائبات ، وما خاموا وما ضجروا

1–خالد محمد خالد ، رجال حول الرسول ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثالثة ، 1984 ، ص ص 647 ، 648

2–المرجع السابق ، ص 645

إن المتأمل في أحاديث المصطفى عليه السلام يلحظ أن الرسول الكريم يخاطب كل فرد أو فئة من الناس تتناسب ومستوياتهم ومكانتهم ، ويمكن التعبير عن ذلك أيضا بمعرفته صلى الله عليه وسلم بأسلوب مخاطبة الآخر حسب نظامه التمثيلي ، ويمكن أن نورد في هذا السياق ، كيف خاطب الرسول الكريم الأنصار عندما احتجوا على طريقة توزيع الغنائم بعد غزوة حنين ، وفي هذا يتجلى لنا أن النظام التمثيلي الغالب على الأنصار هو النظام الحسي ، لذلك اثر الرسول الكريم توجيه الخطاب إلى الجانب السيكولوجي والروحي أكثر من شيء آخر ، وقد نجح هذا الأسلوب أيما نجاح في الاقلاب الشعوري من حالة الاحتجاج إلى حالة الرضا التام بحكمة الرسول في التوزيع .

2-في النظام التمثيلي السمعي

من خطبته صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع :

...أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم ، فاني لا أدري لا لعلي ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا ، إن دماكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ...(1)

يقول المولى عزوجل في سورة يونس : "ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون " الآيتان 42 ، 43

ويظهر العلم الحديث أن الإنسان يوزع زمنه الاتصالي على النحو التالي : الاستماع بالدرجة الأولى بنسبة 45 بالمائة ، ثم الكلام ب 30 بالمائة ، ثم القراءة ب 16 بالمائة ، ثم الكتابة ب 9 بالمائة . يعني ذلك أن الإنسان يسمع أكثر مما يتكلم ويتكلم أكثر مما يقرأ ويقرأ أكثر مما يكتب .

ويظهر العلم الحديث أيضا أن قدرة الإنسان على الكلام تصل إلى 150 كلمة في الدقيقة ، بينما تصل قدرته على الاستماع إلى 450 كلمة في الدقيقة (2)

1–أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب ، بيروت ، مؤسسة المعارف ، ب ت ، ص ص 109 ، 110

2–عبد الرحمن عزي ، دراسات في نظرية الاتصال ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2003 ، ص 45

3–في النظام التمثيلي البصري

يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم

"**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم في أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا** "

رواه البخاري والترمذي

وهذه الصورة يتمثل فيها المجتمع في شكل سفينة لها مسار واحد ، وتحمل على متنها الصالح والطالح من الناس ، ولا بد من ضبط مسارها بالقيم التي ارتضاها الله لنا جميعا ، وهذا مسؤولية منوطة بالصالحين من ركاب السفينة الذين لا خيار لهم إلا الاندماج في واقع السفينة وتحمل الأذى الذين يصدر عن المنحرفين ، فلا مجال للانزواء أو الانطواء ، أو الانفراد بقارب نجاة .

ولا بد من قيادة راشدة تشارك الآخرين في اتخاذ أفضل القرارات وأنسبها ، لتتم الرحلة في أحسن الظروف .

هكذا يصور الحبيب المصطفى المعاني التي يريد توصيلها إلى المتلقين ، ولا جرم أن ذلك نابع من إحاطة دقيقة بخصائص المتلقين واحتياجاتهم .

وهذا ما يمكن أن نعبر عنه من أن الغالب على شخصيات المتلقين من الصحابة الكرام كان نظامهم التمثيلي بصريا ، ولذلك استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب معهم .

خاتمة

لعل الفكرة الأساسية التي بقيت عالقة في ذهني– وأنا أقدم هذا العمل المتواضع– تتناغم إلى حد بعيد مع فكرة هذا الملتقى حول ضرورة الاستفادة من علوم العصر ومعارفه في تجديد فهمنا لهذا الدين ، لأن الفهم السليم هو أساس التطبيق الصحيح لأحكام الدين وتشريعاته على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة .

ولعل المتأمل في البرامج التعليمية الغربية ووسائل الإعلام الغربية يلحظ بوضوح الصورة النمطية السلبية القاتمة التي يحملها الغرب عن الإسلام والمسلمين .

ولا يمكن أن نعزو ذلك كله إلى نظرية المؤامرة على الرغم من مصداقيتها في الكثير من الجوانب ، بل للمسلمين دور كبير في تكريس هذه النظرة ، وفي هذا السياق يمكن أن نستحضر كلمات مؤثرة للمفكر الجزائري مالك بن نبي في لحظات شعور بحجم الهزيمة النفسية والحضارية التي يعيشها العالم الإسلامي حينما يقول :" تمنيت و أنا أتأمل في أمراض المسلمين وكيف تحولوا شهادة على الإسلام وعقبة في طريق

كل باحث عنه ، إذ في طريقه إلى القران تتعثر أقدامه في المسلمين ، فلا يصل إليه للنهل مباشرة من ينابيعه الصافية ، تمنيت لو لم يكن هناك مسلمون أصلا بمن فيهم شخصي ".

وعلى الباحثين وعلماء المسلمين الدور الأكبر في توضيح معالم الطريق لتصحيح ما اعوج عند المسلمين في فهم الدين على ضوء متغيرات العصر وظروفه .

ولا يكون ذلك متاحا إلا من خلال تأسيس فضاءات تنظيمية جادة تجمع بين عدة تخصصات علمية ومعرفية تقدم اسهاماتها بطريقة منهجية وفاعلة ، وما لا يدرك كله لا يترك جله ، فعلى الأقل لا بد من وضع حجر الأساس لهذا المشروع الذي يقدم خدمة للدين وللأمة بطريقة هادئة تتوفر على عنصر الإخلاص والإتقان ما أمكن بعيدا عن الأضواء الكاشفة ، والخطابات المعسولة التي لا تسمن ولا تغني من جوع .

أتمنى من صميم قلبي أن يؤسس هذا الملتقى لهذه الفكرة ويحدد آليات تجسيدها عمليا ، ولا حرج في أن تتضمن توصيات هذا الملتقى على فكرة أو فكرتين فقط قابلتين للتطبيق ، بدل الإسهاب في عرض الطموحات والأماني التي لا ترى النور في مستقبل الأيام .

المراجع :

1–محمود محمد قلندر ، محمد بابكر عوض ، اتجاهات البحث في علم الاتصال ، دمشق ، دار الفكر ، 2009 ، ص 13

2–ابراهيم الفقي ، البرمجة اللغوية العصبية ، دمشق ، منار للنشر والتوزيع ، ب ت ، ص ص 120 ، 121

3–حسن عماد مكاوي ، ليلى حسين السيد ، الاتصال ونظرياته المعاصرة ، بيروت ، الدار المصرية اللبنانية ، 2003 ، ص 28

4– الن بيز ، لغة الجسد ، ترجمة سمير شيخاني ، بيروت ، الدار العربية للعلوم ، الطبعة الأولى ، 1997 ، ص ص 22 ، 23

5–معهد برينستون للغات ، كن خطيبا واثقا في 10 أيام ، مكتبة جرير ، الطبعة الأولى ، 2008 ، ص ص ، 142 ، 143

6–ديماري, آن وفالري وايت (2008م): "**الانطباعات الأولى**", السعودية ، مكتبة جرير للنشر والتوزيع والترجمة, ط3, 2008. ص 18

7–محمد الغزالي ، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث ، وادي سوف ، الجزائر ، دار السلام ، ص 136

8–المرجع السابق ، ص 137

9–مالك بن نبي ، الظاهرة القرآنية ، دمشق ، دار الفكر ، 2004 ، ص 151

10–المرجع السابق ، ص 153

11–المرجع السابق ، ص 153

12–النووي ، شرح صحيح مسلم ، ص 1، 272

13–محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، الكبائر ، بيروت ، دار الحكم الدينية ، 2000 ، ص 81

14–ديل كارنجي ، التأثير في الجماهير عن طريق الخطابة ، ترجمة رمزي يسى ، عزت فهيم صالح ، بيروت ، دار الفكر العربي ، ب ت ، ص 98 وما بعدها

15–المرجع السابق ، ص 103

16–خالد محمد خالد ، رجال حول الرسول ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثالثة ، 1984 ، ص ص647 ، 648

17–المرجع السابق ، ص 645

18–أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب ، بيروت ، مؤسسة المعارف ، ب ت ، ص ص 109 ، 110

19–عبد الرحمن عزي ، دراسات في نظرية الاتصال ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2003 ،